التدرج القرآني في بيان صفات المتافقين

يعد النفاق من أحط الصفات والسلوكيات البشرية، فهو تشويه للفطرة النقية، وهدم لقيم الصدق والموثوقية التي تقوم عليها المجتمعات. ويعيش في المجتمعات البشرية فئة من الناس يظهرون خلاف ما يبطنون ويتلونون بحسب ما تقتضيه مصالحهم، يرفعون شعارات الولاء ويدعون الإيمان في الرخاء، بينما تتكشف مواقفهم الحقيقية في أوقات الأزمات والمحن. والنفاق ظاهرة إنسانية ممتدة ومرض سلوكي واجتماعي متجدد، وإذا تأملنا أوصاف المنافقين كما وردت في ترتيب سور المصحف الشريف، وجدنا تدرجاً عميقاً ينكشف به هذا الداء، حيث يعرض القرآن الكريم ملامح هذه الشخصية من البنية الداخلية إلى المظهر الخارجي.

وقبل استعراض هذه الصفات، ينبغي الوقوف عند الخيط الجامع الذي يفسر كافة سلوكيات المنافق من كذب وتلون وتخاذل وموالاة للخصوم، فالقرآن الكريم يعيد هذه الظاهرات كلها إلى أصل واحد وهو اختلال القلوب، كما قال تعالى: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)، وهذا المرض النفسي والاضطراب العقدي هو الذي يولد الخوف والبحث المستمر عن أمان زائف عبر التلون والمداهنة.

وفي أوائل ما نزل في المدينة، وفي أولى سور المصحف ترتيباً، يفتتح القرآن الكريم في سورة البقرة كشف هذه الفئة بتعرية بنيتهم الداخلية القائمة على ادعاء الإيمان باللسان مع خلوّ القلب منه، ومحاولة اللعب على الحبلين، حيث يقول الله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ). ويعيش المنافق هنا في وهم كبير يصنعه له غروره فيطلق الكلمات والشعارات ليقنع مجتمعه بالانتساب إليه، وهو يظن في نفسه القدرة على مخادعة المؤمنين والمناورة بين المعسكرين المتناقضين، لكن القرآن يقرر حقيقة حاسمة غائبة عنه، وهي أن هذا الذكاء المدعى هو الغفلة بعينها، إذ يرتد أثر الخداع على صاحبه وحيداً بينما يظل المؤمنون في كنف الله وحفظه. وتستمر السورة ذاتها في تفكيك هذا الغرور وتكشف في موضع لاحق خطورة لسان المنافق الذي يخبئ وراءه روحاً عدائية مدمرة، كما يقول سبحانه: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ)، فالكلام المنمق ينقلب إلى سلوك تخريبي في الواقع عند التمكين وتتحول النصيحة لديه إلى استعلاء وتكبر يدفعه لمزيد من الجرم.

وعندما ننتقل إلى سورة آل عمران، يضعنا القرآن أمام مشاهد عملية تفيض بالهلع النفسي والأنانية المطلقة والاعتراض على القدر والتشكيك في وعد الله عند الأزمات، فبينما يغشى النعاس والأمن قلوب المؤمنين الواثقة، يعيش المنافقون حالة من الغليان الداخلي وسوء الظن، كما يصور القرآن حالهم: (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) ثم تتهاوى تلك الشعارات اللفظية تماماً عند التقاء الصفوف في المحن حيث يبرز التخاذل وتختلق الأعذار، كما يقول تعالى في موضع آخر من السورة: (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ) ففي الرخاء يدّعون النصرة، وفي اللحظة التي تتطلب بذل النفس أو الدفاع عن كيان الأمة، ينسحبون متعللين بحجج مصطنعة ليفضح القرآن ما تخفي صدورهم ويعلن تبدّل حالهم بأنهم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان.

وفي سورة النساء يتسع نطاق التشريح القرآني ليسلط الضوء على موقفهم العقدي من الأحكام ثم حقيقتهم السياسية وعلاقاتهم الخارجية، وينتهي بكشف كسلهم التعبدي وخوائهم الروحي. ويظهر ذلك أولاً في رفضهم التام للاحتكام إلى شريعة الله والبحث عن مرجعيات بديلة تناسب أهواءهم كما قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا) وحين يُدعون فوراً إلى تحكيم الوحي والتزام مواقف الأمة المبدئية يبرز طبعهم الحقيقي في النفور، كما قال تعالى في الآية التالية: (إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا) ويمتد هذا المرض في مواضع لاحقة من السورة إلى مداهنة الأعداء وابتغاء المكانة والقوة عندهم، فيبشرهم القرآن بالعذاب الأليم كما قال تعالى: (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) هذا التردد النفسي واللجوء لخصوم الأمة توازيه حركة رياء ومخادعة تنعكس على أقدس شؤونهم وهي العبادة، فيختصر القرآن حيرتهم وخوائهم الروحي في مشهد صلاتهم، كما قال سبحانه: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا)

تأتي بعد ذلك سورة المائدة لتواسي قائد الأمة ﷺ من أثر مسارعتهم في الكفر لتعيد الأمر كله إلى خبث النية وغياب التطهير القلبي، حيث يقول سبحانه: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) وتفضح السورة لاحقاً المبررات التي يسوقها المنافق لموالاة أعداء الأمة، حيث يتذرع بالواقعية أو الخوف من تقلبات الزمن، ليفاجأ بسقوط أقنعته

وحبوط عمله، كما نرى في قوله سبحانه: (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ) إنهم يهرعون لكسب رضا الخصوم بدوافع عديدة، فيكشف الله أمرهم للمؤمنين الذين يتعجبون من حجم الأيمان المؤكدة التي كان يطلقها هؤلاء لتكون النتيجة ضياع جهودهم وخسارتهم.

ثم تتبعها سورة التوبة، التي سُميت بالفاضحة لأنها تتبعت مسالك المنافقين بدقة وجردتهم من كل غطاء أخلاقي، فكشفت خوفهم الشديد وهلعهم النفسي ولجوءهم للأيمان الكاذبة، ولَمْزهم لرسول الله ﷺ طمعاً في المغانم، فإذا أعطوا منها رضوا وإذا لم يُعطوا تذمروا وسخطوا كما يقول تعالى: (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ). وتمضي السورة في تعرية حقيقة استهزائهم بالدين وتملصهم من المسؤولية، وتلتقط جوهر حركتهم الاجتماعية القائمة على إشاعة السوء، مهددة إياهم بالجزاء الأوفى: (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

وفي أواخر المصحف، تأتي السورة التي حملت اسمهم لتضع الخاتمة في تشريح مظهرهم الخارجي وأساليبهم الدعائية الفجة التي قد تخدع العوام، حيث تفتتح برسم الصورة الكاملة لنفاقهم اللفظي والعملي واستعلائهم الأجوف: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) وهنا يصل الوصف الإلهي إلى ذروته بتعرية تلك القشرة الخارجية؛ تجد أحدهم منمق العبارات، فصيح اللسان، يملك مظهراً يبعث على الهيبة والاحترام ويتخذ من الحلف كذباً درعاً يحميه، بينما ينطوي باطنه على رعب كامن وخواء كامل من أي قيمة حقيقية، كجذع شجرة ميت لا روح فيه ولا ثمر.

هذا المشهد السلوكي المتكامل يفسر لنا طبيعة النفس المنافقة من حيث المنشأ فالمتدبر للآيات يلحظ أن النفاق قد يتخذ مسارين، أولهما النفاق النفعي الذي تحركه المصلحة الدنيوية البحتة منذ اللحظة الأولى، فيتظاهر المرء بالإسلام وهو يبطن الكفر. وثانيهما نفاق الارتياب، حيث قد يعلن الشخص إسلامه صادقاً، ثم يطرأ الشك على قلبه إثر الابتلاءات وضغوط البيئة الاجتماعية، وقد ينتهي بعض الناس، بعد ضعف الإيمان أو الفتنة، إلى حال من النفاق بإبطان الكفر مع استمرار إظهار الإسلام مخافة النقد أو فوات المصالح. وقد تلتقي الفئتان في الأثر النهائي إذا استقر النفاق وتمكن من القلب، فلذلك اعتنى المنهج القرآني ببيان عواقب هذا المسلك دون تفرقة في الجزاء، نظراً لخطورة وجودهم داخل البنية الاجتماعية للأمة.